الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

جاذبية الشواطئ المصرية — أعجوبة الأعاجيب

جاذبية الشواطئ المصرية

من الواضح أني لا أستطيع الإجابة عن جميع أسئلة القراء، ولو أني استطعت ذلك لتحولت مقالاتي إلى موضوعات يغلب عليها الضجيج، ومع ذلك فسأرد على الأستاذ أحمد فتحي القاضي، لأنه احتكم إلى الشريعة في وجوب رد التحية، ولأن الرد عليه يوضح مشكلة تحتاج إلى توضيح

والأستاذ غاضب على ما وقع مني في الدعوة إلى الاصطياف، ويقول إن كلامي في التغني بجاذبية الشواطئ لم يقع من أهل الصعيد موقع القبول، ويصرح بأنه كان ينتظر أن أكون من الثائرين على حياة الشواطئ، وقد صارت ملاعب للنساء العاريات، كما قال!

وأقول إني أحترم عواطف قرائي كل الاحترام، ولكن مذهبي في الأدب يأبى عليّ أن أبحث عما يُرضي قرائي، فالغاية عندي هي الصدق في التعبير عما يختلج في صدري، ويطمئن إليه قلبي، ولو كان فيه ما يغضب جميع القراء ... ألم أقل لكم إني لست أسيراً للوطن ولا أجيراً للمجتمع؟

وما ذا أصنع إذا كنت أومن بأن الشواطئ المصرية من أجمل ما خلق الله؟

— ما ذا أصنع وأنا أعتقد أن زيارة الشواطئ المصرية تزيد في قوة العقل والفكر والذوق؟

وهل يرضيني أن أفعل ما يفعل الشيخ أبو العيون وهو يتوهم أن زيارة الشواطئ تفسد الأخلاق؟ إن الشيخ أبو العيون يغرق في كوز ماء فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط؟

هل تعرفون أن الشيخ أبو العيون لم ير الشواطئ مع أنه يعيش في الأسكندرية منذ سنين، ومع أنه أبو العيون؟

آن الوقت لأن نُسمع هذا الرجل الطيب كلمة الحق. آن الوقت لأن ننهاه عن الغض من حياة الشواطئ، وهي نعمة عظيمة من بها المنعم الوهاب على أهل هذه البلاد

هذا الرجل الطيب يتكلم باسم الدين، فهل يستطيع أن يدلني لأي حكمة خلق الله تلك الشواطئ بذلك المهاد الجميل؟

هذا الرجل الطيب يعرف أن السباحة رياضة بدنية، وهو مع ذلك يعجز عن السباحة في الخيال

نفرض أن حياة الشواطئ تفتن بعض الناس، فهل يجب أن نقتلع الجذور من كل جمال يدعو إلى الفتون؟

ما رأيه في القمر وقد قيل إنه يهيج الصبوات؟

أنجرد حملة لإسقاط القمر من أفق السماء؟

ما رأيه في الأزهار وقد قيل إن عطرها يوقظ الشهوات؟

أنجتث كل شجرة مزهرة لتنام عيون أبي العيون؟

الآذان تؤهل لسماع النمائم، فهل نصلم جميع الآذان؟

والجسم السليم يؤهل للمعاصي، فهل نحول الخلائق إلى مهازيل ومعاليل؟

كل نعمة تعرّض صاحبها لمتاعب أخلاقية، فهل نطلب زوال النعم لتستقيم الأخلاق؟

إن أبا العيون الواعظ يحتاج إلى واعظ، فأنا أخشى أن يغضب الله عليه إن استمر على هذا الأسلوب، من الوعظ القلوب

أفي الحق أن الشواطئ ليست إلا مباءة رجس وخلاعة ومجون؟

أهذا كل ما يتصور الباكون على الأخلاق بدموع التماسيح؟

أين إذاً الشعور بجلال الله وجمال الوجود عند زيارة الشواطئ؟

أنتم تدعوننا لزيارة المقابر لنتعظ، ونحن ندعوكم لزيارة الشواطئ لتهتدوا

ضميري لا يسمح بأن أرائي قرائي، فليسمعوا كلمة اللوم على غفلتهم عن الاصطياف، وليسمعوا كلمة الصدق في دعوتهم إلى تنسُّم هواء البحر من حين إلى حين

أما الخوف من اللؤلؤ المنثور فوق الشواطئ فعلاجه سهل، وهل يصعُب عليكم أن تدخلوا الشواطئ بلا عيون؟

عندكم الأقنعة الواقية، وقد وزعتها عليكم الدولة بالمجان منذ سنتين، فالبسوها عند زيارة الشواطئ، لتكونوا في أمان من سحر الجمال

ولكن تلك الأقنعة فيها ثقوب تطل منها العيون، فماذا تصنعون؟

الرأى أن تظلوا فى مراقدكم ، وأن تتركوا هواء البحر ورمال الشواطىء لعقلاء الأجانب

ما ذا يقول أحفادنا إذا قرأوا هذه الكلمة وعرفوا أن الاسطياف كان معضلة تختلف فيها الآراء ؟

لو كانت الشواطىء المصرية بأيد غير أيدينا لأصبحت فراديس تسبر إليها نجوم السماء ، فما يمكن أن تكون فى الدنيا شواطىء فى سجاجة الشواطىء المصرية ، ولا يمكن أن تنعم بلاد بمثل ما ينعم به أهل هذه البلاد من شواطىء تفوق الإحصاء

وما ذا يرى الرائى فى الشواطىء ؟

قالوا إنه يرى أجساماً عارية

الآن فهمتُ وفهمت ، فقد طال غرام الناس بالتحجب والرياء ، لأن اعوجاجهم فى ضمائرهم فرض عليهم أن يعيشوا فى أسر الأثواب

الكلمة الصريحة لا تصدر إلا عن صاحب الرأى الصريح

والجسم العارى لا يتخايل به غير صاحب الجسم الجميل

والمصريون فكروا فى التزود من جميع الثقافات ، وأهملوا الثقافة الجسدية ، فما الذى يمنع أن يكون فى الشواطىء تذكير بما للجسد من حقوق ؟

فى رؤية اللاهين فوق رمال الشواطىء درسٌ ينفع من تركوا أجسادهم بلا تثقيف ، وهو درس يحتاج إليه الشيخ أبو العيون

يجب أن نرى العراة فوق الشواطىء لنتذكر جنايتنا على أجسادنا بترك الرياضة البدنية !

هل تذكرون السيدة التى أثنت على القرار الخاص بتخصيص أحد الشواطىء لاستحمام النساء ؟

هى سيدة لا تستطيع البروز بلباس البحر ولو كان جوازاً إلى دار الخلود !

أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أن أناساً من خلق الله سيعترضون ، كما اعترض المحامي الذى راسلنى من منفلوط ؛ أكتب هذا الكلام وأنا أعرف أنه يصورنى ظالماً بصورة الماجنين ، مع أنى صادق كل الصدق فيما أقول ، فالشواطىء المصرية نعمة من نعم الله ، وما يقع فيها من الشر لا يقاس إلى ما تسوق من منافع الخير الصحيح

لو شئت لعتبت على قرائى : فالشاعر أحمد العجمى يقول

إنى مجّدت الإسكندرية أعظم التمجيد ، فهل زار الإسكندرية ليراها بعينى ؟ والمحامى أحمد القاضى آذاه كلامى عن الإسكندرية فهل زارها ليعرف حقيقة كلامى ؟

زوروا الإسكندرية ، وقفوا لحظات أو ساعات بمحطة الرمل

كان أبعد سفر عند أهل الصعيد هو زيارة طنطا فى مولد السيد البدوى ، فهل أستطيع نقل أهل الصعيد إلى زيارة أبى العباس المرسى ؟

إن كانت الدعوة إلى الحياة خلاعة ومجوناً فأنا راض بأن أضاف إلى الخلعاء والماجنين ... وهل يؤذينى الظن الآثم ، والجهل الطائش ؟

أنا أدعو إلى الحياة . أنا أدعو كل مصرى إلى تذوق الجمال بكل بقعة من بقاع هذا الوادى الجميل

فى السماء رزقى ، فما خوفى من أهل الزور والبهتان ؟

أعجوبة الأهاميب

هى أن تكتب كلمة يفهمها جمهور القراء على الوجه الصحيح ثم تستغلق على محرر مجلة أسبوعية فيؤولها أسوأ تأويل ، وتكون النتيجة أن يبنى عليها أحكاماً أوهى من بيوت العنكبوت ، وهو يتوهم أنه غاية فى اللوذعية والذكاء

ولهذه الأعجوبة قصة قريبة ، فقد كنت كتبت فى رثاء نقلا باشا سطوراً أبرزت بها خصائصه الذاتية ، الخصائص التى جعلت حياته قدوة لرجال الأعمال ، وكان الروح الذى يسود تلك السطور يفيض بمعانى العدل والإنصاف والإجلال ، وإن خلا من الندب واللطم والصراخ ، على نحو ما صنع المحرر لتلك المجلة الأسبوعية

كان الظن أن يفهم بعض خلق الله أنى أرثى نقلا باشا فى مجلة الرسالة ، والرسالة تترجم من رثيهم ، فجوها يصلح للترجة ولا يصلح للبكاء ، وهل يحتاج نقلا باشا إلى من يبكيه ؟ إنما يحتاج مثل هذا الرجل إلى من يظهر الشمائل التى وصلت به إلى أن يكون فى الطليعة بين رجال الصحافة فى الشرق ، وليس ذلك بالمجد الضئيل ، حتى نكمله بالتوجع والتفجع والأنين

ولكن ذلك المحرر رأى بذهنه الثاقب أن كلمتى تحتمل التأويل ، فانتهز الفرصة وتقرب إلى أطيب صاحب « الأهرام »

بالشفقة المكذوبة والود المدخول ؛ فزعم أنى هجمت على ميت ، ثم تطاول فقال كلاماً يدل على أدبه الجميل

وأردت أن أصحح خطأه فكتبت كلمة تصحيح ، ولكنه عاند عناداً يُقبل ممن يكون فى مثل عقله فألقاها فى سلة المهملات ، لأنى هددته بنشر ما اعترض عليه ، عسانى أجد الفرصة لتقويم بعض المحررين

وأحب أن أعرف ما هى الغاية من الإيقاع بين الناس ؟

قلت لذلك المحرر : إن لى أصدقاء فى جريدة الأهرام على رأسهم أنطون الجميّل وكامل الشناوى وعوض جبريل ، فكيف يُسيغ ذهنك أنى أستبيح إيذاء أولئك الأصدقاء فى مناسبة لا يجوز فيها إيذاء الأعداء ؟

وقلت لذلك المحرر : إنى لا أهجم إلا على الأقوياء من الأحياء ، فكيف أهجم على ميتٍ لا أذكر أنى عاديته لحظة من زمان ؟

وقلت لذلك المحرر : إنى رثيت تقلا باشا وأنا أتمثل ما عانى فى حياته الصحفية ، فما يجوز أن أقول فيه غير الجميل ، وإن التبس كلامى عليك

وقلت لذلك المحرر : إن لتقلا باشا أقارب من أصدقائى فى القاهرة وبيروت ، وأنا أتحيز دائماً لأصدقائى ، فليس من المعقول أن أوذيهم فى مثل هذا المقام الحزين

وبرغم هذه الشروح أصرّ المحرر على إغفال كلمة التصحيح ، فما الأخلاق عندكم يا محررى بعض المجلات الأسبوعية ؟

ما الأخلاق عندكم وقد أهمل ذلك المحرر رجائى فى أن لا يدس بينى وبين ناس محزونين ؟ وما هذا الإفك فى الإفساد بين الناس ؟

أنا حاضر لمخاصمة جريدة الأهرام ، ولكنى أرفض أن يقال إنى أخاصم صاحبها فى غداة الموت ، وليس لحىّ بقاء

وما قيمة التودد لجريدة الأهرام بمثل هذا الدس المقوت ؟

أيكون لجريدة الأهرام قوة سحرية تمنع العواقب المقدورة على الدساسين ؟

القدرة الصحيحة هى قدرة الحق ، فما شأنك يا كاتباً أفلس فلم يجد زاداً غير الوقيعة بين كرام الرجال ؟ ما شأنك ولن تتكون كاتباً ولو سودت وجهك بالمداد فى ألوف من السنين ؟

ما عتبى عليك ، وقد نصحتك فلم تنتصح ، بعد أن رأيت ما صنعت بنفسك ، يوم صورت شعورك بأول غارة جوية ؟

ما عتبى عليك ، وقد خاب أملى فيك ؟

لقد فكرت فى أن أشرح لك العبارة التى عجز عن وعيها فهمك ، ولكنى خفت أن تعجز عن فهمها بعد الشرح

وقد فكرت فى النص على المجلة التى تتسع لأوهامك وأحلامك ، ولكنى ترفقت فلم أدل على مجلة كان زادها ولن يزال من عبث الأطفال

إن كلمتى فى رثاء تقلا باشا كلمة حق ، لأنى رثيته باسم الحق ، فما قيمة كلماتك فى رثائه وأنت ترائيه فى الحياة وبعد الممات لغايات ؟

عفا الله عنك يا فلاناً بالمجلة الفلانية !

ونفعك الله بهذا الدرس البليغ !

زكى مبارك

الكأس المسمومة

للأستاذ سيد قطب

أقلاكِ أقلاكِ كالشيطان أقلاك ... أقلاك كالسم يسرى جدّ فتّاكِ

أقلاك : إنك فى نفسى وفى زمنى ... وفى حياتى أفنى ذات أشواكِ

سمّمت عيشى وأحلامى وأخيلتى ... وأنت شيطانة فى سمت أملاكِ

وعشتُ أرعاك فى قلبى وأنت بلا ... قلبٍ يحس ويرعى كيف أرعاكِ

من أنت ؟ ما أنت ؟ إنى حائر قلق ... أأنت أسطورة فى سِفْرِ أفّاكِ ؟

أنسى الليالى التى قضيتُها قلقاً ... وأنتِ ساكنةٌ راضٍ تُحيّاكِ

أنسى الدموع التى أرسلتها عَدَقاً ... ولست لولا هواكِ المرُّ بالباكى

وكبريائى التى ما كنت أخفضها ... من قبلُ أو بعدُ فى دنياى لولاكِ

أنسى . وأذكر أحلامى وأخيلتى ... كأنهن نجوم بين أحلاكِ

وكلهن نسيجُ الوهم فى خلدى ... ولسنَ غيرَ أحابيلٍ وأشواكِ

أقلاكِ ؟ ليت ! فإنى لست أقلاكِ ... أهواكِ ؟ ليت ! فإنى لست أهواكِ

أهوى وأقلى وأيامى موزعة ... بين الهوى والقلى كالضاحك الباكى

هذا الرحيق وهذا السم قد مزجا ... ولست أروى بكأسٍ غير ريّاكِ

هاتى لىَ السمَّ صرفاً لا يمازجه ... هذا الرحيقُ فإنى لستُ بالشاكى

ملأتُ كأسكِ لا ألتذّ نشوتها ... ولا أحطّمُها تحطيم سفّاكِ